

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية إلا قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مَرْسَلًا﴾^(١)، [وهي ثلاث وأربعون آية]^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿المر﴾ قال ابن عباس: معناه: أنا الله أعلم وأرى^(٣)، ﴿تلك آيات الكتاب﴾، يعني: تلك الأخبار التي قصصتها [عليك]^(٤) آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، ﴿والذي أنزل إليك﴾، يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك، ﴿من ربك الحق﴾، أي: هو الحق فاعتصم به .
فيكون محل «الذي» رفعا على الابتداء، و«الحق» خبره .

(١) أخرج النحاس في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس، وسعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير أن سورة الرعد مكية. وبه قال الحسن وعطاء وقتادة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، وابن مردويه عن ابن الزبير: أن سورة الرعد نزلت بالمدينة. وبه قال جابر ابن زيد .

وروي عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة، ورواه ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة .
ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها، أو في جوها العام الذي لا يخطيء تنسّمه من يعيش فترة في ظلال القرآن .

انظر: الدر المنثور: ٥٩٩/٤، الانتقان: ٤٤٠-٤٤٤، زاد المسير: ٢٩٩/٤، في ظلال القرآن: ٢٠٣٩/١٣ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ» .

(٣) انظر فيما سبق: ٥٨/١، وراجع تفسير الطبري: ٢٢٤-٢٠٥/١، ١٤٩/٦، ٢٩٣/١٢، ٢٩٤، ٩/١٥، ٣١٩/١٦-٣٢٠ .
طبعة دار المعارف، زاد المسير: ٣٠٠/٤ .

(٤) ساقط من «ب» .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

وقيل: محله خفض، يعني: تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ثم ابتداء: «الحق»، يعني: ذلك الحق^(١).

وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه: هذه آيات الكتاب، يعني القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقول من تلقاء نفسه^(٢)، فردّ قولهم ثم بين دلائل ربوبيته، فقال عزّ من قائل:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، يعني: السّواري، واحداها عمود، مثل: أديم وأدم، وعمد أيضاً جمعه، مثل: رسول ورسل.

ومعناه نفى العمد أصلاً، وهو الأصح، يعني: ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها.

قال إياس بن معاوية: السماء مقببة على الأرض مثل القبة^(٣).

وقيل: «ترونها» راجعة إلى العمد، [معناه]^(٤): لها عمد ولكن لا ترونها^(٥).

(١) انظر في هذا وشواهد من العربية: تفسير الطبري: ٣٢٢-٣٢١/١٦، البحر المحيط: ٣٥٩/٥، المحرر الوجيز: ١١٠-١٠٩/٨.

(٢) وقيل: المراد اليهود والنصارى. والأولى أنه عامٌ يندرج تحته هؤلاء وأولئك.

انظر: البحر المحيط: ٣٥٩/٥.

(٣) وهذا مروى أيضاً عن قتادة، ويدل عليه تصريحه تعالى في سورة الحج أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: (وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ).

فعل هذا يكون قوله (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك. أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. وهذا هو الأكمل في القدرة. وعلى هذا يكون الضمير في قوله «ترونها» عائد على «السّموات»، وجملة «ترونها» في موضع الحال.

انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/١٦، تفسير ابن كثير: ٥٠٠/٢، أضواء البيان: ٧٨-٧٧/٣، المحرر الوجيز: ١١٠/٨.

(٤) ساقط من «ب».

(٥) وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد، والحسن، وقاتدة، وغير واحد.

وقال الطبري تعقيماً على هذين الرأيين: (٣٢٥/١٦): «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربنا - جلّ ثناؤه - ولا خير بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه».

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَاتِ فِي ذَلِكَ لَا يَتْلُو لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

وزعم: أن عمدها جبل قاف، وهو محيط بالدنيا، والسماء عليه مثل القبة^(١).

﴿ثم استوى على العرش﴾، علا [عليه]^(٢)، ﴿وسخر الشمس والقمر﴾، ذللهما لمنافع خلقه
 فهما مقهوران، ﴿كل يجري﴾، أي: يجريان على ما يريد الله عز وجل، ﴿لأجل مسمى﴾، أي:
 إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا. [وقال ابن عباس]^(٣): أراد بالأجل المسمى درجتهما ومنازلهما
 ينتهيان إليها لا يجاوزانها، ﴿يُدبِّرُ الْأَمْرَ﴾، يقضيه وحده، ﴿يفصل الآيات﴾، يبين الدلالات، ﴿لعلكم
 بلقاء ربكم تؤقنون﴾، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿وهو الذي مد الأرض﴾، بسطها، ﴿وجعل فيها رواسي﴾، جبلاً ثابتة، واحدها: راسية،
 قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض^(٤)، ﴿وأنهاراً﴾، وجعل فيها أنهاراً.
 ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾، أي: [صنفين اثنين]^(٥) أحمر وأصفر، وحلوا

(١) التعبير بكلمة «زعم» تشير إلى تضعيف هذا الرأي، لأن زعم مطية الكذب، كما تقول العرب، ولذلك، ثبت هنا كلمة
 قيمة للمحافظ ابن كثير، رحمه الله، في تفسيره لسورة (ق): (٢٢٢/٤) قال:

«روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من
 خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب.
 وعندي: أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة
 - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ، وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل،
 مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته!
 وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوز العقل. فأما ما تحيله العقول
 ويحكم فيه بالبطلان ويقلب على الظنون كذبه: فليس من هذا القبيل. والله أعلم».

ثم قال: «وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في
 تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، والله الحمد والمثني ثم أورد أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس،
 أخرجه ابن أبي حاتم الرازي عن جبل قاف المحيط بالأرض وقال: «وإسناد الأثر فيه انقطاع».

هذا، وقد جمع الشيخ أحمد شاكر كلمات ابن كثير في الاسرائيليات، في عمدة التفسير: ١٤/١-١٩.

(٢) في «ب»: علمه.

(٣) في «ب»: وقيل.

(٤) نقله القرطبي عن ابن عباس وعطاء: ٢٨٠/٩.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وحامضاً، ﴿يغشى الليل النهار﴾، أي: يلبس النهار بظلمة الليل، ويلبس الليل بضوء النهار، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾، فيستدلون. والتفكر^(١): تصرف القلب في طلب معاني الأشياء. ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾، مقاربات يقرب بعضها من بعض، وهي مختلفة: هذه طيبة تنبت، وهذه سيخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع، وهذه كثيرة الريع، ﴿وجنات﴾: بساتين، ﴿من أعناب وزرع ونخيل صنوان﴾، رفعها كلها ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب، عطفاً على الجنات، وجراها الآخرون نسقاً على الأعناب.

والصنوان: جمع صنو، وهو النخلات يجمعهن أصل واحد.

﴿وغير صنوان﴾، هي النخلة المنفردة بأصلها.

وقال أهل التفسير^(٢): صنوان: مجتمع، وغير صنوان: متفرق. نظيره من الكلام: قنوان جمع قنو. ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «عم الرجل صنو أبيه»^(٣).

ولا فرق في الصنوان والقنوان بين الثنية والجمع إلا في الإعراب، وذلك أن النون في الثنية مكسورة غير منونة، وفي الجمع منونة.

﴿يسقى بماء واحد﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿يسقى﴾ بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿وجنات﴾ ولقوله تعالى من بعد «بعضها على بعض»، ولم يقل بعضه. والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام.

﴿ونُفِضَ بعضها على بعض في الأكل﴾، في الثمر والطعم.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ويُفَضِّل﴾ بالياء، لقوله تعالى: ﴿يُدبر الأمر يُفَضِّل الآيات﴾ (الرعد - ٢).

وقرأ الآخرون بالنون على معنى: ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل، وجاء في الحديث

[في قوله]: «ونفضل بعضها على بعض في الأكل»، قال: «الفارسي، والدَّقْل، والحلو، والحامض»^(٤).

(١) في «أ»: والفكر.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٥/١٦ - ٣٤٠.

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه مسلم في الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم (٩٨٣): ٦٧٧-٦٧٦/٢.

وانظر فيما سبق: ١٥٤/١. تفسير الطبري: ٣٣٨/١٦ - ٣٣٩ مع تعليق محمود شاكر.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير: ٥٤٤/٨ وقال: «هذا حديث حسن غريب، وقد رواه زيد ابن أبي أنيسة عن الأعمش نحو هذا. =

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

قال مجاهد: كمثل بني آدم، صالحهم وخبثهم، وأبوهم واحد^(١).
قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، يقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عز وجل، فسطحها، فصارت قطعاً متجاوزة، فينزل عليها المطر^(٢) من السماء، فتخرج هذه زهرتها، وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سببها وملحها وخبثها^(٣)، وكل يُسقى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو.

قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: «وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»^(٤) (الإسراء - ٨٢).
﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، العجب تغير النفس برؤية المُستبعد في العادة، والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق [من الله عز وجل]^(٥) فعجب أمرهم.

وكان المشركون ينكرون البعث، مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب.

= وسيف بن محمد هو أخو عمار بن محمد، وعمار أثبت منه، وهو ابن أخت سفيان الثوري.
وأخرجه الطبري في التفسير: ٣٤٤/١٦، وعزاه السيوطي في الدر: ٦٠٥/٤ أيضاً للبزار وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.
و«الفارسي» - من القمر - نوعٌ منه، ولعله عنى به (البرني) وهو ضرب من القمر أصفرمدور، عذب الحلاوة وهو أجوده.
وقالوا: إن لفظ «البرني» فارسي معرب.

و«الدقل»: أردأ أنواع القمر.

انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ٣٤٣/١٦.

(١) الطبري: ٣٤٢/١٦.

(٢) في «ب»: الماء.

(٣) في «ب»: خبثها.

(٤) الطبري: ٣٤٠/١٦.

(٥) ساقط من «ب».

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

وقيل: معناه: وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم مالا يضر ولا ينفع آلهة يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجب أيضاً من قولهم: ﴿أئذا كنا تراباً﴾، بعد الموت، ﴿أئذا لفي خلق جديد﴾، أي: نعاد خلقاً جديداً كما كنا قبل الموت.

قرأ نافع والكسائي ويعقوب «أئذا» مستفهماً «إنا» بتركه، على الخير، ضده: أبو جعفر وابن عامر. وكذلك في «سبحان» في موضعين، والمؤمنون، وآلم السجدة، وقرأ الباقون بالاستفهام فيها وفي / الصافات في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية «أئذا» متناً وكنا تراباً وعظماً أئنا لمدينون (الصافات - ٥٣). قال الله تعالى: ﴿وأولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾، يوم القيامة ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ويستعجلونك بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، الاستعجال: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته، والسَّيِّئَةِ هاهنا هي: العقوبة، والحسنة: العافية. وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم» (الأنفال - ٣٢).

﴿وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾، أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات. والمثلات جمع المَثَلَةِ بفتح الميم وضم التاء، مثل: صَدَقَةٌ وَصَدَقَاتُ (١). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿ويقول الذين كفروا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾، مُخَوِّفٌ، ﴿ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى. وقال الكلبي: داع يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة.

(١) الصَّدَقَات: مهور النساء.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ

وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ، يقول: إنما أنت منذر وأنت هادٍ لكل قوم، أي: داعٍ .
وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى (١) .
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾، من ذكر أو أنثى، سوي الخلق أو ناقص الخلق،
واحداً أو اثنين أو أكثر ﴿وما تغيض الأرحام﴾، أي ما تنقص ﴿وما تزداد﴾ .
قال أهل التفسير (٢): غيض الأرحام: الحيض على الحمل؛ فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في
الولد، لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم
تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقة باستمساك الدم .
وقيل: إذا حاضت ينتقص (٣) الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة (٤) أشهر ظاهراً، فإن
رأت (٥) خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء، والزيادة في المدة (٦) .

(١) ساق الطبري الأقوال في التفسير ثم قال: «وقد بينت معنى «الهداية» وأنه الإمام المتبع الذي يقدم القوم. فإذا كان ذلك كذلك، فجائز أن يكون هو الله الذي يهدي خلقه، ويتبع خلقه هداً، ويأتون بأمره ونهيه .
وجائز أن يكون نبي الله الذي تأت به أمته .
وجائز أن يكون إماماً من الأئمة يؤتم به، ويتبع منهاجه وطريقته أصحابه .
وجائز أن يكون داعياً من الدعاة إلى خير أو شر .
وإن كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: إن محمداً هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وأن لكل قوم هادياً يهديهم فيتبعونه ويأتون به» .
تفسير الطبري: ٣٥٨/١٦ .

(٢) انظر في هذه الأقوال وتخرجها: الدر المنثور: ٦٠٨/٤-٦١٠، تفسير الطبري: ٣٥٩/١٦-٣٦٥ . وقرأ كتاب «خلق الإنسان» بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار، فصل دورة الأرحام ص (٦٩-٨٢) .

(٣) في «ب»: ينقص .

(٤) في «ب»: بسبعة .

(٥) في «ب»: زادت .

(٦) هذه الأقوال في تفسير الآية بناء على أن الحامل تحيض، وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قولي. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض. وبه قال أبو حنيفة، ودليله الآية .

قال ابن عباس في تأويل الآية: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد، وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع .
وقال أبو حنيفة: لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صح استبراء الأمة بحيض، وهو إجماع .
وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض .

انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٦/٩ . أحكام القرآن للجصاص: ٣٩٧/٤-٣٩٩، تفسير ابن عطية: ١٣٠/٨-١٣١، أحكام القرآن لابن العربي: ١١١٠/٣ .

وقال الحسن: غيضاها: نقصانها من تسعة أشهر، والزيادة: زيادتها على تسعة أشهر .

وقيل النقصان: السقط، والزيادة: تمام الخلق .

وأقل مدة الحمل: ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش^(١) .

واختلفوا في أكثرها: فقال قوم: أكثرها ستان، وهو قول عائشة رضي الله عنها، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله .

وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة: إنما سمي هَرَمَ بن حَيَّان هَرَمًا لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين^(٢) .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾، أي: بتقدير وَحَدٌّ لَا يَجَاوِزُهُ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ .

(١) وذلك منتزع من قوله تعالى: «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» (الأحقاف - ١٥) مع قوله تعالى: «والوالدات يرضعن أولادهن حولتين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» (البقرة - ٢٣٣) فبقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر . وكلام الأطباء يتفق مع هذا، فالطب يقرر أن أقل الحمل الذي يمكنه العيش بعده ستة أشهر، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «وأما أقل مدة الحمل: فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر» . انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٨/٩، التبيان في إقسام القرآن لابن القيم ص (٢٣٩)، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار ص (٤٥١-٤٥٢) .

(٢) وقد أنكر بعض المالكية وابن حزم أن يكون هناك حمل أكثر من تسعة أشهر، فقال ابن حزم: «... ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر... فمن ادعى أن حملاً وفصلاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال بالباطل والحال وردّ كلام الله عز وجل جهاراً» . وبعد أن ذكر جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من ستة أشهر، قال: «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدّق ولا يعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا. ومن روي عنه مثل قولنا: عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، فهو يقول: أيما رجل طلق امرأته فحاضت حيضة أو حيضتين ثم قعدت فلتجلس تسعة أشهر حتى يستبين حملها، فإن لم يستبين حملها في تسعة أشهر فلتعتد بعد التسعة الأشهر ثلاثة أشهر عدة التي قعدت عن الحيض . فهذا عمر لا يرى الحمل أكثر من تسعة أشهر، وهو قول محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وأبي سليمان، وأصحابنا . قال علي بن حزم -: إلا أن الولد قد يموت في بطن أمه فيتأدى بلا غاية حتى تلقيه متقطعاً في سنين. فإن صح هذا فإنه حمل صحيح لا تنقضي عدتها إلا بوضعه كله...» .

وهذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده، وإلا مات الجنين في بطن أمه. ويعتبرون ما زاد عن ذلك نتيجة خطأ في الحساب، وأما ما يحكى عن مولودين لسنوات بعد الحمل، أو أن الحمل عند امرأة استمر لسنوات... فهي ما يسمونه «الحمل الكاذب» وهي حالة تصيب النساء اللاتي يحشن عن الإنجاب دون أن ينجن فينتفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة بأنها حامل رغم تأكيد جميع الفحوصات المخبرية والطبية بأنها غير حامل. والله أعلم .

انظر في هذا كله: تفسير القرطبي: ٢٨٨/٩-٢٨٩، أحكام القرآن لابن العربي: ١١٠٩/٣، الدر المنثور: ٦٠٩/٤. وقارن بـ: المحلى لابن حزم: ٣١٦/١٠-٣١٨، خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار، ص (٤٥٢-٤٥٤) .

عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ
وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٢﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالٍ ﴿٣﴾

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾، الذي كل شيء دونه، ﴿المتعال﴾، المستعلي على كل شيء
بقدرته .

قوله تعالى: ﴿سواءٌ منكم من أسر القول ومن جهر به﴾، أي: يستوي في علم الله المُسرُّ
بالقول والجاهر به، ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾، أي: مستتر بظلمة الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾،
أي: ذاهب في سره ظاهر .

والسَّرب - بفتح السين وسكون الراء -: الطريق^(١) .

قال القتيبي: سارب بالنهار: أي متصرف في حوائجه .

قال ابن عباس [في هذه الآية]^(٢): هو صاحب رية، مستخف بالليل، فإذا خرج بالنهار أرى
الناس أنه بريء من الإثم^(٣) .

وقيل: مستخف بالليل، أي: ظاهر، من قولهم: خفيت الشيء؛ إذا أظهرته، وأخفيت: إذا كتمته.
وسارب بالنهار: أي متوارٍ داخل في سرب .

﴿له معقبات﴾، أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل
جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل .

والتعقيب: العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب، وجمعه معقب، ثم

(١) اختلف أهل العلم بكلام العرب في «السَّرب» :

فقال بعضهم: «هو آمن في سره»، بفتح السين .

وقال بعضهم: «هو آمن في سربه» بكسر السين .

انظر: الطبري: ٣٦٧/١٦ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) الطبري: ٣٦٧/١٦ .

جمع الجمع معقبات، كما قيل: ابنات^(١) سعد ورجالات بكر .

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يُعْرَجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»^(٢) .

قوله تعالى: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار، ومن خلفه: من وراء ظهره، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجيء المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه .

وقيل: يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه .

قال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك موكل به، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريد به إلا قال وراءك! إلا شيء يأذن الله فيه فيصبيه .

قال كعب الأحبار: لولا أن الله عز وجل وكل بكم ملائكة يذُبُّونَ عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطقكم الجن .

وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم^(٣) .

(١) في «ب»: اثناوات. وصححها الشيخ محمود شاكر في الطبري: سادات سعد، يقال: «سيد» و«سادة» و«سادات» .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر: ٣٣/٢، وفي بدء الخلق، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما برقم (٦٣٢): ٤٣٩/١، والمصنف في شرح السنة: ٢٢٦/٢ .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (٣٤/٢): «قال القرطبي: الواو في قوله «يتعاقبون» علامة الفاعل المذكور المجموع على لغة بلحارث وهم القائلون: أكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر: «بحوران يعصرن السليط أقاربه» وهي لغة فاشية، وعليها حمل الأخفش قوله تعالى: (وَأَسْرُوا النجوى الذين ظلموا) قال: وقد تمسف بعض النحاة في تأويلها وردّها للبدل، وهو تكلف مستغنى عنه، فإن تلك اللغة مشهورة ولها وجه من القياس واضح...» .

(٣) ورجحه الطبري لأن قوله: (له معقبات) أقرب إلى قوله: (ومن هو مستخفي بالليل) منه إلى (عالم الغيب) فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنى بذلك هذا مع دلالة قول الله تعالى: (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له) على أنهم المعنيون بذلك .

وذلك أنه - جل ثناؤه - ذكر قوماً أهل معصية له وأهل ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومتّعوا تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله. ثم أخبر أن الله - تعالى ذكره - إذا أراد بهم سوءاً لم ينفعهم حرسهم، ولا يدفع عنهم حفظهم .

وأما ابن عطية فرجح التأويل الأول، وقال: وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لمعنيين من البشر .

انظر: تفسير الطبري: ٣٧٤/١٦، المحرر الوجيز لابن عطية ١٣٧/٨ .

وقيل: الآية في المَلَكَيْنِ القَاعِدَيْنِ عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ» (ق - ١٧) .

قال ابن جريج: معنى يحفظونه أي: يحفظون عليه أعماله من أمر الله، يعني: الحسنات والسيئات .
وقيل: الهاء في قوله «له»: راجعة إلى رسول الله ﷺ :

روى جويرير عن الضحّاك عن ابن عباس أنه قال: له معقبات يعني لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، [يعني: من شر الجن] ^(١) وطوارق الليل والنهار ^(٢) .

وقال عبدالرحمن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل، وأريد بن ربيعة، وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

أقبل عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة، وهما عامريان، يريدان رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه، فدخلوا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من [أجل] ^(٣) الناس / .

أ/١٨٩

فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نخوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً يهده . .

فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد مالي إن أسلمت؟

قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» .

قال: تجعل لي الأمر بعدك .

قال: ليس ذلك إلهي، إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ، يجعله حيث يشاء .

قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: لا .

قال: فماذا تجعل لي؟

قال: أجعل لك أئنة الخيل تغزو عليها .

قال: أوليس ذلك إلي اليوم؟ قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ .

وكان [عامر] ^(٤) أوصى إلى أريد بن ربيعة إذا رأيته أكلمه فذر من خلفه فاضربه بالسيف،

فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أريد من خلف النبي ﷺ ليضربه، فاخترط من سيفه

(١) ساقط من «ب» .

(٢) هذا التفسير جاء ضمن حديث ابن عباس الآتي في قصة أريد، انظر التعليق التالي .

(٣) في «ب»: أجمل .

(٤) ساقط من «ب» .

شيراً، ثم حبسه الله تعالى عنه، فلم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومئذ إليه، فالتفت رسول الله ﷺ، فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت .

فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قاتظ فأحرقتة، ووَلَّى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأُها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً .
فقال النبي ﷺ : يمنعك الله تعالى من ذلك، وأنباء قيلة يريد: الأوس والخزرج .

فنزّل عامر بيت امرأة سلولية، فلما أصبح ضمّ عليه سلاحه وقد تغير لونه، فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز يا ملك الموت، ويقول الشعر، ويقول واللات والعزى لئن أبصرت محمد وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برححي، فأرسل الله إليه ملكاً فطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبته في الوقت غُدّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية. ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فقتل عامر بن الطفيل بالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القصة قوله: ﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارّ بالنهار له معقبات من بين يديه﴾، يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله (١). [يعني تلك المعقبات من أمر الله (٢)، وفيه تقديم تأخير .

وقال لهُذَيْن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، من العافية والنعمة، ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾،

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٩-٣٨١، تفسير القرطبي: ٢٩٦/٩، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٤-٣١٥)، ابن كثير: ٥٠٧/٢ .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٤٢/٧): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفي إسنادهما عبدالعزیز بن عمران: ضعيف» .
ورواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ضعيفة .

قال الطبري: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في تأويل هذه الآية، قول بعيد من تأويل الآية، مع خلافه أقوال مَنْ ذكرنا قوله من أهل التأويل .

وذلك أنه جعل «الهاء» في قوله: «له معقبات» من ذكر رسول الله ﷺ، ولم يُخَرّج له في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذِكْرًا، إلا أن يكون أراد أن يردها على قوله: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»، «له معقبات» فإن كان ذلك، فذلك بعيد، لما بينهما من الآيات يغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ .

وإذا كان ذلك كذلك، فكونها عائدة على «مَنْ» التي في قوله: «وَمَنْ هو مستخف بالليل» أقرب، لأنه قبلها، والخبر بعدها عنه .
فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم - أيها الناس - من أسرّ القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخف بفسقه وريته في ظلمة الليل، وسارب يذهب وبجيء في ضوء النهار ممتنعاً بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدّ الله عليه، وذلك قوله: «يحفظونه من أمر الله» .

وكذلك قال ابن عطية في المحرر الوجيز: (١٣٧/٨): «وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة، فيُضْعَف القول أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في «له» عليه» .

(٢) ساقط من «ب» .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ ﴿١٣﴾

من الحال الجميلة فيعصوا ربهم .

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾، أي: عذاباً وهلاكاً ﴿فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي: لا رادَّ له ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾، أي: ملجأً يلجئون إليه. وقيل: وإل يلي أمرهم ويمتنع العذاب عنهم .
قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قيل: خوفاً من الصاعقة، طمعاً في نفع المطر .

وقيل: الخوف للمسافر، يخاف منه الأذى والمشقة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة .
وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وإبانه، والطمع إذا كان في مكانه وإبانه، ومن البلدان ما إذا أمطروا وقحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا .

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾، بالمطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي: أبدأها فبدت،
والسحاب جمع، واحدها سحابة، قال علي رضي الله عنه: السحاب غربال الماء .
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، أكثر المفسرين على أن الرعد اسم مَلَكٍ يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسييحه^(١) .

قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعلي ديته .

وعن عبدالله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث: وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد^(٢) .
وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد»^(٣) .

(١) انظر فيما سبق: ٦٩/١-٧٠ .

(٢) انظر: الأذكار للنووي ص (١٥٤) تفسير ابن كثير: ٥٠٦/٢ ففيها الأذكار التي تقال عند سماع صوت الرعد .

(٣) حديث ضعيف أخرجه أبو داود والطيالسي في «المسنَد» ص (٣٣٧) رقم (٢٥٨٦)، والإمام أحمد في المسند: ٣٥٩/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وصححه الحاكم في المستدرک: ٣٤٩/٢ فتعقبه الذهبي وقال: «صدقة واه»، وهو صدقة بن موسى الدقيقي، صدوق له أوهام

(تقريب) .

وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأن مجور الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله تعالى، فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القطر. ﴿والملائكة من خيفته﴾، أي: تسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وخشيته.

وقيل أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد، جعل الله تعالى له أعواناً، فهم خائفون خاضعون طائعون.

قوله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق﴾، جمع صاعقة، وهي: العذاب المهلك، ينزل من البرق فيحرق من يصيبه، ﴿فيصيب بها من يشاء﴾، كما أصاب أريد بن ربيعة.

وقال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكِر. ﴿وهم يجادلون﴾، يخاصمون، ﴿في الله﴾، نزلت في شأن أريد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: مِمَّ ربك أم من ذُرٍّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقتة^(١).

وسئل الحسن عن قوله عز وجل: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفرأ يدعوهم إلى الله وإلى رسوله.

فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه مِمَّ هو؟ من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟

فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه!

فقال: ارجعوا إليه، فرجعوا إليه، فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أُجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه؟

فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث.

فقال ارجعوا إليه، فرجعوا، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونهم، وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة، فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وبرقت، ورمت بصاعقة، فاحترق الكافر، وهم جلوس، فجاءوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ، فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ، فقالوا لهم: احترق صاحبكم. فقالوا: من أين علمتم فقالوا أوحى الله إلى النبي ﷺ: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾^(٢).

= وساقه ابن الجوزي في العلل المتناهية: ٣٠٦/٢، وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ١٤٦١/٣.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٥٠٧/٢.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣١٤)، الدر المنثور للسيوطي: ٦٢٥/٤، ٦٢٦، البحر المحيط: ٣٧٥/٥، ابن كثير: =

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ
كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي

ضَلَالٍ ١٤

﴿وهو شديد المحال﴾، قال علي رضي الله عنه: شديد الأخذ^(١).

وقال ابن عباس: شديد الحول^(٢).

وقال الحسن: شديد الحقد^(٣).

وقال مجاهد: شديد القوة^(٤).

وقال / أبو عبيدة: شديد العقوبة.

وقيل: شديد المكر.

والمحال والمُحَالَّة: الماكرة والمغالبة.

﴿له دعوة الحق﴾، أي: لله دعوة الصديق.

قال علي رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد^(٥).

وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله^(٥).

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل^(٦).

﴿والذين يدعون من دونه﴾، أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى. ﴿لا يستجيبون لهم

بشيء﴾، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرر، ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ

= ٥٠٧/٢، وبنحوه عن أنس، أخرجه أبو يعلى والبخاري في الأوسط. ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير ديلم

ابن غزوان، وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والبخاري علي بن أبي شارة وهو ضعيف.

انظر: مجمع الزوائد: ٤٢/٧.

(١) أخرجه الطبري: ٣٩٦/١٦. وقال الشيخ محمود شاكر: ٣٩٢/١٦: وهذا إسناد منكر.

(٢) الطبري: ٣٩٦/١٦.

(٣) نسب السيوطي لأبي الشيخ عن عكرمة الدر المنثور: ٦٢٧/٤. وأخرج الطبري عن عكرمة قال: ما أصاب أريد من الصاعقة.

وأخرج الطبري أيضاً عن الحسن في تفسير الآية: يعني الهلاك. قال: إذا حل فهو شديد.

وما لإخال هذا التفسير الذي ذكره المصنف يصح عن الحسن رحمه الله لأننا وجدنا خلافة في الطبري، والله سبحانه وتعالى

لا يليق وصفه بهذا. والله أعلم.

(٤) انظر الطبري: المرجع السابق.

(٥) الطبري: ٣٩٨/١٦.

(٦) وهذه المعاني كلها متقاربة وليس بينها اختلاف.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

فاه وما هو ببالغه، أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء [والقابض على الماء]^(١) لا يكون في يده شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع، لا يكون بيده شيء.

وقيل: معناه كالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد، فهو يشير بكفه إلى الماء، ويدعوه بلسانه، فلا يأتيه أبداً، هذا معنى قول مجاهد.

ومثله عن علي وعطاء: كالعطشان الجالس على شفير^(٢) البئر، يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا يرتفع إليه الماء، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم دعاؤها، وهي لا تقدر على شيء.

وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء، ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطاً كفيه. وهو مثل ضربه لحية الكفار^(٣).

﴿وما دعاء الكافرين﴾، أصنامهم، ﴿إلا في ضلال﴾، يضل عنهم إذا احتاجوا إليه، كما قال: «وضل عنهم ما كانوا يفترون» (الأنعام - ٢٤ وغيرها).

وقال الضحاك عن ابن عباس: وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً﴾، يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿وكرها﴾، يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف.

﴿وظلالهم﴾، يعني: ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً تسجد لله عز وجل طوعاً.

قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره.

﴿بالغدو والآصال﴾، يعني إذا سجد بالغدو أو العشي يسجد معه ظله.

و«الآصال»: جمع «الأصل»، و«الأصل» جمع «الأصيل»، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «أ»: شفة.

(٣) قال الطبري: ٣٩٩/١٦ والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً، بالقابض على الماء. قال بعضهم: فأني وإياكم وشوقاً إليكم كقباض ماء لم تسقه أنامله وقوله: «لم تسقه» من وسقت الشيء أسقه وسقاً: إذا حملته.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لأنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ
وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

وقيل: ظلّهم أي: أشخاصهم، بالغدو والآصال: بالبكر والعشايا .

وقيل: سجود الظل تذليله لما أريد له .

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما ومدبرهما [فسيقولون الله] (١)،
لأنهم يقولون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإذا أجابوك فقل أنت أيضاً يا محمد: «الله» .
وروي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أجب أنت، فأمره الله عز وجل فقال:
﴿قُلِ اللَّهُ﴾ .

ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، معناه: إنكم مع إقراركم بأن
الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم
﴿لَا يَمْلِكُونَ لأنفسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، فكيف يملكون لكم؟

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، كذلك لا يستوي الكافر
والمؤمن، ﴿أَمْ هَلْ يَسْتَوِي﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يَسْتَوِي﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالناء
لأنه لا حائل بين الاسم والفعل المؤنث. ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾، أي: كما لا يستوي الظلمات والنور
لا يستوي الكفر والإيمان .

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾، أي: جعلوا، ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: اشتبه ما
خلقه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم .

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل، فقال عز وجل :

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا
يُقَوِّدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿أنزل﴾ يعني: الله عز وجل، ﴿من السماء ماء﴾، يعني المطر، ﴿فسالت﴾ من ذلك الماء، ﴿أودية بقدرها﴾، أي: في الصغر والكبر، ﴿فاحتمل السيل﴾، الذي حدث من ذلك الماء، ﴿زبدًا رابيًا﴾، الزبد: الحَبُّ الذي يظهر على وجه الماء، وكذلك على وجه القدر، «رابيًا» أي عاليًا مرتفعًا فوق الماء، فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل .

وقيل: قوله «أنزل من السماء ماء» هذا مَثَلٌ للقرآن، والأودية مَثَلٌ للقلوب، يريد: ينزل القرآن، فتحمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل. فهذا أحد المَثَلَيْنِ .
والمثل الآخر: قوله عز وجل: ﴿وما يُوقدون عليه في النار﴾ .
قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يوقدون﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿ما ينفع الناس﴾، ولا مخاطبة هاهنا .

وقرأ الآخرون بالناء ﴿وما توقدون﴾، أي: ومن الذي توقدون عليه في النار .
والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليدوب .
﴿ابتغاء حلية﴾، أي لطلب زينة، وأراد الذهب والفضة؛ لأن الحلية تُطلبُ منهما، ﴿أو متاع﴾ أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد، والنحاس، والرصاص، والصُّفْر، تذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿زبدٌ مثله﴾ ..
﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، أي: إذا أذِيبَ فله أيضاً زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل .
﴿فأما الزبد﴾، الذي علا السيل والفيلز، ﴿فيذهب جفاء﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد، والقدرُ إلى جنباته .
يقال: جفا الوادي وأجفأ: إذا ألقى غشاه، وأجفأت القدر وجفأت: إذا غلت وألقت زبدها، فإذا سكنت لم يبق فيها شيء .

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ
 هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

معناه: إن الباطل وإن علا في وقتٍ فإنه يَضْمَحِلُّ .

وقيل: «جُفَاءً» أي: متفرقاً. يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرقتَه وذهبت به .

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفرة والنحاس، ﴿فِيمَكْتٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يبقى ولا يذهب .

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، جعل الله تعالى هذا مثلاً للحق والباطل، أي: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، والحق كالماء والفلز يبقى في القلوب .

وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يُرى في الصورة شيئاً وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات .

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أجابوا، لرَّبِّهم، فأطاعوه، ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنة، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾، أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾. قال إبراهيم النخعي: سُوءُ الْحِسَابِ: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له من شيء / ﴿وَمَا وَاهِمٌ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، الفراش، أي: بئس ما مُهد لهم .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾، فيؤمن به ويعمل بما فيه، ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾، عنه لا يعلمه ولا يعمل به .

قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل .

وقيل: في عمار وأبي جهل^(١) .

فالأول حمزة أو عمار والثاني أبو جهل، وهو الأعمى .

أي: لا يستوي من يُبصر الحق ويتبعه ومن لا يُبصره ولا يتبعه .

﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ﴾ يتعظ، ﴿أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ﴾. ذوو العقول .

(١) ذكر ذلك ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٦٠/٨ ثم قال: «وهي - بعد هذا - مثال في جميع العالم» .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾، بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه، ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾، وقيل: أراد العهد الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه .
﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾، قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسول ولا يفرقون بينهما .

والأكثر على أنه أراد به (١) صلة الرّحم (٢) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد
ابن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا سفيان بن عيينة،
عن الزهري، عن أبي سلمة أن عبدالرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال - يعني عبدالرحمن -:
سمعت رسول الله ﷺ يقول: فيما يحكي عن ربه عز وجل: «أنا الله، وأنا الرحمن، وهي الرّحم،
شقت لها من اسمي اسماً، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بئته» (٣) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، حدثني حميد
ابن زنجويه، حدثنا ابن أبي أويس (٤)، قال: حدثني سليمان بن بلال عن معاوية ابن أبي مزرّد، عن
سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ
منه قامت الرّحم فأخذت بحقوي الرّحم، فقال: مة، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة،
قال: ألا ترضين أن أصيل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب، قال: فذلك لك»، ثم

(١) جملة «أراد به» ساقطة من «ب» .

(٢) ولم يذكر الطبري غيره، وأما ابن عطية فقال: «ووصل ما أمر الله به أن يوصل، ظاهرة في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات». المهر الوجيز ١٦٠/٨ .

وعلى ذلك فيدخل في معنى الآية أيضاً الإيمان بجميع الكتب والرسول وسائر ما يجب الإيمان به .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥٣٦/٨، وعبدالرزاق في مصنفه: ١٧٢/١١، وأخرجه أبو داود في الركاة، باب صلة
الرحم: ٢٦٢/٢، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم: ٣٣/٦، وقال: حديث صحيح. قال المنذري:
وفي تصحيحه نظر فإن يحيى بن معين قال: أبو سلمة بن عبدالرحمن لم يسمع من أبيه شيئاً، وذكر غيره أن أبا سلمة وأخاه
لهما سماع من أبيهما .

وصححه الحاكم في المستدرک: ١٥٧/٤-١٥٨، وابن حبان ص (٤٩٨-٤٩٩) من موارد الظمان، وأخرجه الإمام أحمد
في المسند: ١٩٤/١، والمصنف في شرح السنة: ٢٢/١٣. وانظر: مجمع الزوائد: ١٤٩/٨ .

(٤) في «ب»: أوس .

قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»^(١) (محمد - ٢٢) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أنبأنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا كثير بن عبدالله الشكري، حدثنا الحسن بن عبدالرحمن ابن عوف عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يُحاجُّ العباد، له ظهر وبطن، والأمانة، والرحم تنادي ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله»^(٢) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرياني، أخبرنا حميد ابن زنجويه، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني عُقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن ييسر له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»^(٣) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد ابن عبدالعزيز البغوي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة، عن عُيينة بن عبدالرحمن قال: سمعت أبي يحدث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من وصل وصله الله: ٤١٧/١٠، وفي التفسير أيضاً، وأخرجه مسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها برقم (٢٥٥٤): ١٩٨٠-١٩٨١/٤ وليس فيه «فأخذت بحقوي الرحمن» وفي بعض الروايات «بحقو الرحمن» وفي بعضها «بحجرة الرحمن»، انظر: فتح الباري ٤١٧-٤١٨/١٠ . وأخرجه المصنف بهذا اللفظ في شرح السنة: ٢١/١٣، ثم قال:

قيل في معنى التعلق بحقو الرحمن: إنه الاستجارة والاعتصام بالله سبحانه وتعالى، يقال: عُذْتُ بحقو فلان: إذا استجرت به . وقيل: الحقو: الإزار، وإزاره: عزه، ولأدت الرحم بعزه من القطيعة، كما جاء في الحديث في دعاء المشتكي: «أعوذ بعزة الله من شر ما أجد» (أخرجه مالك، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه) .

(٢) أخرجه المصنف في شرح السنة: ٢٢-٢٣/١٣، ونسبه السيوطي في الجامع الصغير للحكيم الترمذي في نوادره، ومحمد بن نصر في فوائده .

قال المناوي في «فيض القدير»: ٣١٧/٣ «وفيه كثير بن عبدالله الشكري، متكلم فيه»، وقال الذهبي في «الميزان»: ٤٠٩/٣: «كثير بن عبدالله، عن الحسن بن عبدالرحمن بن عوف، عن أبيه، وعنه عن مسلم بن إبراهيم، قال العقيلي: لا يصح إسناده» وذكر له هذا الحديث .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم: ٤١٥/١٠، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم، برقم (٢٥٥٧): ١٩٨٢/٤، والمصنف في شرح السنة: ١٩-١٨/١٣ .

وقوله: «يُنسأ في أثره» معناه: يؤخر في أجله، يقال: نسأ الله في عمرك، وأنسأ عمرك. والأثر هاهنا: آخر العمر، وسمي الأجل أثراً لأنه يتبع العمر .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في النبي عن البغي: ٢٢٥/٧، والترمذي في صفة القيامة، باب انظروا إلى من أسفل منكم: =

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الزياى، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع»^(١).

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمد بن حمش الزياى، حدثنا أحمد بن إسحاق الصيدلانى، أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا عمرو بن عثمان قال سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبد الله، لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(٢).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه حدثنا أبو يعلى وأبو نعيم قالوا: حدثنا قطر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»^(٣)، [رواه محمد بن إسماعيل عن محمد بن كثير عن سفيان عن قطر وقال: إذا قطعت رحمه وصلها]^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.
﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾، على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عز وجل. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: عن الشهوات. وقيل: عن المعاصي.
﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، طلب تعظيمه أن يخالفوه.

= ٢١٣/٧-٢١٤، وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه في الزهد، باب البغي، برقم (٤٢١١): ١٤٠٨/٢، وصححه الحاكم في المستدرک: ١٦٣/٤. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣٨/٥، والمصنف في شرح السنة: ٢٦/١٣.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع: ٤١٥/١٠، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، برقم (٢٥٥٦): ١٩٨١/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٦/١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة: ٢٦١/١٣، ومسلم في الإيمان باب بيان الإيمان الذي يُدْخِلُ الجنة، برقم (١٣): ٤٢/١-٤٣، والمصنف في شرح السنة: ٢١/١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ: ٤٢٣/١٠، والمصنف في شرح السنة: ٣٠/١٣.

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٤٣﴾

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، يعني يؤدّون الزكاة .
 ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيئ من العمل، وهو معنى قوله: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» (هود - ١١٤) .
 وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ بِجَنبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا، السِّرُّ بالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ»^(١) .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، حدثنا أبو الخير، أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ كَمِثْلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دَرْعٌ ضَيْقَةٌ قَدْ خَنَقَتْهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً، فَانْفَكَّتْ عَنْهُ حَلَقَةٌ، ثُمَّ عَمِلَ أُخْرَى فَانْفَكَّتْ أُخْرَى، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ»^(٢) .

وقال ابن كيسان: معنى الآية: يدفعون الذنب بالتوبة .
 وقيل: لا يكافون الشرّ بالشرّ، ولكن يدفعون الشرّ بالخير .
 وقال القتيبي: معناه: إِذَا سَيِّئَةٌ عَلَيْهِمْ حَلِمُوا، فَالْسَّفَةُ: السَّيِّئَةُ، وَالْحِلْمُ: الْحَسَنَةُ .
 وقال قتادة: ردوا عليهم معروفاً، نظيره قوله تعالى: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» (الفرقان - ٦٣) .

وقال الحسن: إِذَا حُرِّمُوا أَعْطُوا وَإِذَا ظَلِمُوا عَفَوْا وَإِذَا قُطِعُوا وَصَلُوا .

قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، يعني الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب. ثم بيّن ذلك فقال :

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، بسايتين إقامة / ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ١٩٠/ب

(١) أخرجه الإمام أحمد: ١٦٩/٥، قال الهيثمي في المجمع: (٨١/١٠): «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن شهر بن عطية حدث به عن أشياخه عن أبي ذر، ولم يسم أحداً» .

وروى الإمام أحمد عن عطاء مرسلاً في «الزهد»: إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَحْدِثْ عِنْدَهَا تَوْبَةً: السِّرُّ بالسِّرِّ، وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ .
 قال العراقي: وفيه انقطاع . انظر: فيض القدير: ٤٠٦/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ١٤٥/٤، وعزاه الهيثمي للطبراني، وقال: «وَأَحَدُ إِسْنَادِي الطَّبْرَانِيُّ رَجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ» .
 وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٣٣٩/١٤ . وفيه ابن لهيعة .

وانظر: مجمع الزوائد: ٢٠١/١٠ - ٢٠٢، فيض القدير للمناوي: ٥٢٠/٢ .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾، قيل: من أبواب الجنة. وقيل: من أبواب القصور. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يقولون سلام عليكم.

وقيل: يقولون: سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافون منها. قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات، معهم الهدايا والتحف من الله عز وجل، يقولون سلام عليكم، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن بقية بن الوليد، حدثني أرطاة بن المنذر قال: سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول: جلسْتُ إلى أبي أمانة فقال: إن المؤمن ليكون مُتَكَمِّلاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِمَاطَانِ من خَدَمٍ، وعند طرف السَّمَاطَيْنِ بَابٌ مَبُوبٌ^(١).

فَيُقْبَلُ مَلَكٌ من ملائكة الله يستأذن، فيقوم أقصى الخدم^(٢) إلى الباب، فإذا هو بالملك يستأذن، فيقول للذي يليه: ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، [فيقول أقربهم إلى المؤمن]^(٣): ائذنوا له، [ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له]^(٣) كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له فيدخل، فيسلم ثم ينصرف^(٤).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، هذا في الكفار. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض. وقيل: يقطعون الرِّحْمَ^(٥)، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي

(١) باب مَبُوبٌ: مصنوع معقود، وإن شئت قلت: قد اتخذ له بواباً يحرسه.

(٢) في الأصل: أدنى الخدم. والمثبت من الدر المنثور والطبري: فهو أليق بالسياق.

(٣) ما بين القوسين من «ب».

(٤) أخرجه ابن جرير: ٤٢٥/١٦-٤٢٦، وفيه بقية بن الوليد: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وقد صرح هنا بالتحديث. ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الألحاني، قال: سمعت أبا أمانة، فذكر نحوه.

انظر: الدر المنثور: ٦٤٠/٤، تفسير ابن كثير: ٥١٢/٢، حاشية الشيخ محمود شاكر على الطبري في الموضع السابق.

(٥) انظر فيما سبق تفسير الآية (٢١) من السورة ص (٣١٠) مع التعليق.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
 الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

الأرض، أي: يعملون بالمعاصي، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، يعني: النار، وقيل:
 سوء المنقلب لأن منقلب الناس دُورهم .

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُوسِّعُ على من يشاء ويضيقُ على
 من يشاء .

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني: مشركي مكة أشيروا وبَطَرُوا، والفرح: لذة في القلب بِئِيل
 المشتبه، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام .

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: قليل ذاهب. قال الكلبي: كمثل السكرجة
 والقصعة والقَدَحِ والقِدْرِ يتتفع بها [ثم تذهب] (١) .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، من أهل مكة، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [أي: يهدي إليه من يشاء بالإنابة. وقيل: يرشدُ إلى دينه من يرجع
 إليه بقلبه] (٢) .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في محل نصب، بدلٌ من قوله: «من أُنَابَ»، ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾، تسكن، ﴿قُلُوبُهُمْ
 بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال مقاتل: بالقرآن، والسُّكُون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك، ﴿أَلَا بِذِكْرِ
 اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين .

قال ابن عباس: هذا في الحَلِيف، يقول: إذا حلف المسلم (٣) بالله على شيء تسكن قلوبُ
 المؤمنين إليه (٤) .

فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: «إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم» (الأنفال
 - ٢)، فكيف تكون الطمأنينة والوجل في حالة واحدة؟

(١) ساقط من «أ» .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) في «ب»: المؤمن .

(٤) ساقط من «ب» .

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى

قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وثوابه^(١) وكرمه .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ابتداءً، ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ خبره .

واختلفوا في تفسير ﴿طوبى﴾^(٢) .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: فرَّحَ لهم وقُرَّ عين .

وقال عكرمة: نِعَمَ ما لهم .

وقال قتادة: حسنى لهم .

وقال معمر عن قتادة: هذه كلمة عربية، يقول الرجل للرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً .

وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة .

وقال الفراء: [أصله من الطيب، والواو فيه لضمة الطاء، وفيه لغتان، تقول العرب: طوباك

وطوبى لك أي لهم الطيب]^(٣) .

﴿وَحُسْنُ مَا أَتَى﴾ أي: حسن المنقلب .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبيشية .

قال الربيع: هو البستان بلغة الهند .

وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قالوا: [طوبى شجر في الجنة تُظِلُّ الجنان كلها .

وقال عبيد بن عمير]^(٤) . هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار

وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونها ولا زهرة إلا وفيها منها إلا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهة

ولا ثمرة إلا وفيها منها. تنبع من أصلها عينان: الكافور والسلسيل .

قال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها مَلَكٌ يُسَبِّحُ الله عز وجل بأنواع التسبيح^(٥) .

(١) ساقط من «أ» .

(٢) انظر في تفسير طوبى، والروايات، في: الطبري: ٤٣٤-٤٤٤، الدر المنثور: ٦٤٢/٤-٦٤٣ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٤) هذه الروايات، وغيرها من الروايات، التي تتضمن زيادات كثيرة عن الحديث الصحيح الذي سيأتي في تفسير «طوبى»،

وفيها مبالغات كثيرة، وقد ساقها الطبري، وتعقب بعضها الحافظ ابن كثير - رحمه الله - هذه الروايات من الاسرائيليات،

وحسبنا في تفسير «طوبى» الحديث الصحيح المتفق عليه الذي ساقه المصنف من رواية أبي هريرة رضي الله عنه .

وانظر: الاسرائيليات والموضوعات لأبي شعبة ص (٣٢٣-٣٢٦) .

وأشار ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٦٨/٨ إلى تلك الروايات والمبالغات التي مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما طوى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(١).

وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: «طوى شجرة غرسها الله تعالى بيده، ونفخ فيها من رُوحه، تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة»^(٢).

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زياد مولى بني مخزوم، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة [لا يقطعها]^(٣)، اقرؤوا إن شئتم: «وظل ممدود» (الواقعة - ٣٠) فبلغ ذلك^(٤) كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد ﷺ، لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرماً، إن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من رُوحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة^(٥).

وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوى، يقول الله عز وجل لها: تفتقي لعبدي عما شاء فتنفتق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، يفتق له عن الراحلة برجلها وزمامها

= دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة، وأن منها الخيل بسرجهما ولجامهما... ونحو هذا مما لا يثبت سنده. (١) أخرجه الطبري: ٤٤٣/١٦-٤٤٤، والإمام أحمد في المسند: ٧١/٣، وابن حبان برقم (٢٦٢٥) ص (٦٥٢) من موارد الظمان، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٩١/٤ مطوياً. وانظر: كنز العمال: ٤٥٧/١٤، الدر المنثور: ٦٤٤/٤. والحديث من رواية «درّاج» (أبو السَّمْح)، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وهو إسناد ضعيف. ونقل الإمام عبد الله بن أحمد ابن حنبل عن أبيه أن دراجاً: روايته منكورة.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٤٣/١٦، وفيه محمد بن زياد الجريري: وهو كذاب خبيث يضع الحديث. وفرات بن أبي الفرات: قال ابن معين عنه: ليس بشيء.

انظر تعليق الشيخ محمود شاكر في الموضع السابق.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) ساقط من «ب».

(٥) عزاه السيوطي بطوله في الدر المنثور لعبد بن حميد: ٦٤٩/٤، وقد أخرج عبد بن حميد في المنتخب ص (٤٢٤) القطعة الأولى منه، وأخرجه عن أنس ص (٣٥٦).

وأخرج القطعة الأولى منه إلى قوله: (اقرؤوا إن شئتم...) البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: ٣١٩/٦، ومسلم في الجنة باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها... برقم (٢٨٢٦): ٢١٧٥/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٠٧/١٥.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

[وهيئتها] ^(١) كما شاء وعن الثياب ^(٢).

قوله عز وجل ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾: كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة،
﴿قَدْ خَلَتْ﴾، مضت، ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ﴾، لتقرأ، ﴿عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ
بِالرَّحْمَنِ﴾.

قال قتادة، ومقاتل، وابن جريج: الآية مبدئية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن
عمرؤ لما جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ / لعلني
رضي الله عنه: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة - يعنون
مسيلمة الكذاب - اكتب كما كنت تكتب: «باسمك اللهم»، فهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ
بِالرَّحْمَنِ﴾ ^(٣).

والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الجحر يدعو
يا الله يارحمين، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين؛ يدعو الله، ويدعو إلهاً آخر يسمى
الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ
ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ^(٤) (الإسراء - ١١٠).

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي
ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، لهم يا محمد إن الرحمن الذي
أنكرتم معرفته، ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدت ﴿وَالِيهِ مَتَابِ﴾، أي: توبتي ومرجعي.

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الطبري: ٤٣٨/١٦، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف. وعزاه السيوطي أيضاً: لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا، وابن
المنذر، وابن أبي حاتم.

انظر: الدر المنثور: ٦٤٣/٤.

(٣) أخرجه الطبري: ٤٤٥/١٦-٤٤٦، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، وابن المنذر عن ابن جريج.
انظر: الدر المنثور: ٦٥٠/٤، أسباب النزول للواحد ص (٣١٥)، القرطبي: ٣١٨-٣١٧/٩، البحر المحيط: ٣٩٠/٥.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣١٨/٩، ٦٤/١٣، البحر المحيط: ٣٩٠/٥.

(٥) انظر: أسباب النزول للواحد ص (٣١٥)، القرطبي: ٣١٨/٩، البحر المحيط: ٣٩٠/٥.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ أَوْ قُطِيعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهٖ الْمَوْتَىٰ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِشِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوِ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ﴾، الآية. نزلت في نفر من مشركي مكة؛ منهم أبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية؛ جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ، فاتاهم، فقال له عبدالله بن أبي أمية: إن سرُّك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبنا عنا حتى تنفسح، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، لنغرس فيها الأشجار ونزرع، ونتخذ البساتين، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تُسبح معه، أو سخر لنا الريح فركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا، فقد سُخرت الريح لسليمان كما زعمت، ولست بأهون على ربك من سليمان، وأحيى لنا جذك قصياً أو من شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحق ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى، ولست بأهون على الله منه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ﴾^(١) فأذهبت عن وجه الأرض، ﴿أَوْ قُطِيعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ﴾، أي: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهٖ الْمَوْتَىٰ﴾ واختلّفوا في جواب «لو»: جواب «لو»:

فقال قوم: جوابه محذوف، اكتفى بمعرفة السامعين مراده^(٢) وتقديره: لكان هذا القرآن، كقول الشاعر: (٣).

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْنَا أَن نَّأْتِيَا رَسُولَهُ * سِوَاكَ وَلَكِنْ لَّمْ نَجِدْ لَكَ مَذْفَعًا
أراد: لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم .
وقال آخرون: جواب لو مقدم. وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ﴾^(٤)، كأنه قال: لو سيرت به الجبال ﴿أَوْ قُطِيعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهٖ الْمَوْتَىٰ﴾ لكفروا

(١) انظر الطبري: ٤٤٩/١٦-٤٥٠، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٦)، تفسير القرطبي: ٣١٨/٩، البحر المحيط: ٣٩١/٥،

الدر المنثور: ٦٥١/٤-٦٥٣، تفسير ابن كثير: ٤١٦/٢ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٨/١٦-٤٤٩، البحر المحيط: ٣٩١/٥ .

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص (١١٣). وانظر: الطبري: ٢٧٧/١٥، ٤٤٨/١٦ .

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٦/١٦-٤٤٧، البحر المحيط: ٣٩١/٥ .

بالرحمن ولم يؤمنوا، لما سبق من علمنا فيهم، كما قال: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا» (الأنعام - ١١١) ثم قال:

﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾، أي: في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل .

﴿أَفَلَمْ يَأْسِرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم. قال الكلبي: هي لغة النَّحَع^(١).

وقيل: لغة هوازن، يدل عليه قراءة ابن عباس: «أفلم يتبين الذين آمنوا»^(٢).

وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم، وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول: يئست، بمعنى: علمت، ولكن معنى العلم فيه مضمر^(٣).

وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوهم فيؤمنوا فنزل: ﴿أَفَلَمْ يَأْسِرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء، أي لم يأسروا علماً، وكل من علم شيئاً يئس من خلافه، يقول: ألم يئسهم العلم: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارَعَةً﴾ أي: نازلة وداهية تفرعهم من أنواع البلاء، أحياناً بالجدب، وأحياناً بالسلب، وأحياناً بالقتل والأسر .

وقال ابن عباس: أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم .

﴿أَوْ تَحُلْ﴾، يعني: السرية والقارعة، ﴿قَرِيْباً مِنْ دَارِهِمْ﴾، وقيل: أو تحل: أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريباً من ديارهم، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسلياً لنبيه ﷺ:

(١) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٠/٦، ٤٥٢-٤٥٣ مع تعليق الشيخ محمود شاكر .

(٢) الطبري: ٤٥١/١٦ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٥١/١٦-٤٥٢ .

هذا وقد رجَّح الطبري القول الأول الذي قال عنه البغوي إنه قول أكثر المفسرين، فقال: (٤٥٥/١٦): «والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل، أن تأويل ذلك: «أفلم يتبين ويعلم»، لإجماع أهل التأويل على ذلك» .

فتأويل الكلام إذاً: ولو أن قرآناً سوى هذا القرآن كان سيَّرت به الجبال، لسيَّر بهذا القرآن، أو قطعت به الأرض، لقطعت بهذا، أو كلَّم به الموتى، لكَلَّم بهذا، ولكن لم يُفعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيُفعل بهذا «بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» يقول: ذلك كله إليه وبيده، يهدي من يشاء إلى الإيمان فيوفِّقه له، ويضل من يشاء فيضلّه، أفلم يتبين الذين آمنوا بالله ورسوله = إذ طمعوا في إجابتي من سأل نبيهم ما سأله من تسيير الجبال عنهم، وتقريب أرض الشام عليهم، وإحياء موتاهم = أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان به من غير إجماع آية ولا إحداء شيء مما سألوهم إحدائه؟ يقول تعالى ذكره: فما معنى محبتهم ذلك، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إليّ ويدي، أنزلت آية أو لم أنزلها، أهدي من أشاء بغير إنزال آية، وأضل من أردت مع إنزالها .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ
 كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ
 بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن
 هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿ولقد استهزى برسول من قبلك﴾، كما استهزؤا بك، ﴿فأمليت للذين كفروا﴾، أمهلتهم
 وأطلت لهم المدة، ومنه «الْمَلَوَانِ»، وهما: الليل والنهار، ﴿ثم أخذتهم﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي
 الآخرة بالنار، ﴿فكيف كان عقاب﴾، أي: عقابي لهم .

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾، أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما
 عملت. وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه .
 ﴿وجعلوا لله شركاء قُل سَمُّوهُمْ﴾ يثيرون أسماءهم .
 وقيل: صفوهم ثم انظروا هل هي أهل لأن تُعبد؟

﴿أم تنبؤنه﴾ أي: تخبرون الله تعالى: ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾، فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً
 ولا في الأرض إلها غيره، ﴿أم بظاهر﴾ يعني: أم تتعلقون بظاهر، ﴿من القول﴾، مسموع، وهو
 في الحقيقة باطل لا أصل له .

وقيل: بباطل من القول، قال الشاعر :

وَعَيَّرَنِي الْوَاشُونَ أَنِّي أُجِيبُهَا * وَثَلَّكَ شَكَاةَ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارَهَا
 أي: زائل^(١) .

﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾، كيدهم. وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله .
 ﴿وصدّوا عن السبيل﴾، أي: صرفوا عن الدين .

(١) قال أبو منصور في تهذيب اللغة: «الشكاة: توضع موضع العيب والذم؛ وعير رجل عبدالله بن الزبير بأمه، فقال: يابن ذات
 النطاقين. فتمثل عبدالله بقول الهذلي: وتلك شكاة...»

أراد: أن تميمه إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعاري، ومعنى قوله: «ظاهر عنك عارها» أي: ناب. أراد: أن هذا
 ليس عاراً يُلزق به وأنه يفتخر بذلك...»

انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٤٠/١٤-٤٤١ .

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾
 * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ
 وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ ﴿٣٦﴾

قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿وَصَدَّوْا﴾ وفي حم المؤمن ﴿وَصَدَّ﴾ بضم الصاد فيهما، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الحج - ٢٥)، وقوله «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» (النحل - ٨٨ وغيرها).

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾، بخذلانه إيَّاه، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بالقتل والأسر، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾، أشد، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾، مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: «والله المثل الأعلى» (النحل - ٦٠) أي: الصفة العليا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها.

وقيل: «مثل» صلة مجازها «الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار».

﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، ﴿وِظِلُّهَا﴾، أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى^(١).

﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي: عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني: الجنة، ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا هُمْ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ﴾

(١) قال شارح الطحاوية عند قول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تغيبان أبداً ولا تبددان...» قال: ص (٤٩١-٤٩٣). «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تغنى ولا تبدد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مِمَّا بَادَمَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ) أي غير مقطوع. وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) (الدخان - ٥٦). والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله: «من يدخل الجنة يتعم ولا يئس، ويخلد ولا يموت» (رواه مسلم)، وقوله: «ينادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تشبوا فلا تنهوا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً» (رواه مسلم).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

بما أنزل إليك ﴿٣٨﴾ من القرآن، ﴿ومن الأحزاب﴾ يعني: الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ،
وهم اليهود والنصارى، ﴿من ينكر بعضه﴾، هذا قول مجاهد وقتادة^(١).

١٩١ / ب

وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم / عبدالله بن سلام
وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن
فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب
من ينكر بعضه﴾^(٢)، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح: بسم
الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن الإمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله
عز وجل^(٣): ﴿وهم بذكر الرحمن هم كفرون﴾ (الأنبياء - ٣٦) «وهم يكفرون بالرحمن» (الرعد
- ٣٠).

وإنما قال «بعضه» لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن.
﴿قل﴾، يا محمد، ﴿إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾، أي:
مرجعي.

﴿وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، يقول: كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد، فأنكره الأحزاب،
كذلك أنزلنا الحكم والدين عربياً. نُسِبَ إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب.
وقيل: نظم الآية: كما أنزلت الكتب على الرسل بلغاتهم، فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكماً
عربياً.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾، في الملة. وقيل: في القبلة، ﴿بعد ما جاءك من العلم مالك من
الله من ولي ولا واق﴾، يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾، روي أن اليهود، - وقيل: إن المشركين - قالوا:

(١) انظر: الطبري: ٤٧٣/١٦، الدر المنثور: ٦٥٨/٤.

(٢) ذكره الماوردي واختاره الزخشري. انظر: البحر المحيط: ٣٩٦/٥، المحرر الوجيز: ١٧٩/٨.

(٣) انظر فيما سبق تفسير الآية (٣٠) من السورة ص (٣١٨).

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

إنَّ هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾^(١)، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون .
 ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، هذا جواب عبدالله بن أبي أمية. ثم قال :
 ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، يقول لكل أمر قضاءه الله كتاب قد كتبه فيه ووقت يقع فيه .
 وقيل: لكل أجل أجله الله كتاب أثبت فيه .
 وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: أي، لكل كتاب أجل ومدة، أي: الكتب المنزلة لكل واحد منها وقت ينزل فيه .

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم ويعقوب ﴿ويثبت﴾
 بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد .
 واختلفوا في معنى الآية :

فقال سعيد بن جبير، وقادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه^(٢) .

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة^(٣) .
 وروينا عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النَّفْثَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فيقول: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فيُكْتَبَانِ، فيقول: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أَثْنَى؟ فيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَآثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثم تُطَوَّى الصُّحُفُ فلا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»^(٤) .
 وعن عمر وابن مسعود - رضي الله عنهما - أنهما قالَا: يمحو السعادة والشقاوة أيضاً، ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت علي الشقاوة فامحني، وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. ومثله عن ابن مسعود .

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٣١٧) عن الكلبي بدون إسناد، وانظر: تفسير القرطبي: ٣٢٧/٩، البحر المحيط: ٣٩٧/٥ .

(٢) أخرجه الطبري: ٤٠-٣٩/١٦ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٨٥/١٦-٤٨٦، وسائر الأقوال في تفسير الآية في الصفحات التالية منه، وانظر: الدر المنثور: ٦٦٥-٦٥٩/٤ .

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٢٦٤٤): ٢٠٣٧/٤ .

وفي بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عُمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فتد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمُد إلى ثلاثين سنة .
أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني زيادة بن محمد الأنصاري، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عز وجل في آخر ثلاث ساعات يَتَقَيَّنَ من الليل، فينظر في الساعة الأولى منهن في أم الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت»^(١) .

وقيل: معنى الآية: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم، فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قوله: أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحوها من كلام هو صادق فيه، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي .
وقال الكلبي: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب .

وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعة الله عز وجل فهو الذي يثبت .

وقال الحسن: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجيء أجله إلى أجله .

وعن سعيد بن جبير قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها .

وقال عكرمة: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الذنوب بالتوبة، ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان - ٧٠) . وقال السدي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني القمر ﴿ويثبت﴾ يعني الشمس، بيانه قوله تعالى: «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» (الإسراء - ١٢) .

وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم، فمن أراد موته مَحَاهُ^(٢) فأمسكه،

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٨٩/١٦، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري: منكر الحديث .

قال الميثمي في المجمع: (١٠٤/١٥٥-١٥٥): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبرار بنحوه، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث» .

(٢) في «ب»: فجأة .

وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ
 ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ
 وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

ومن أراد بقاءه أثبتته وردّه إلى صاحبه، بيانه قوله عز وجل: «اللّٰهُ يتوفى الأنفس حين موتها» الآية (الزمر - ٤٢). ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير.

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب، يمحو منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب الذي لا يُغيّر منه شيء.

وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن الله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة ﴿يُمحُو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾. وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله، ما هو خالق، وما تخلقه عاملون^(١).

﴿وَمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾، من العذاب قبل وفاتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، ليس عليك إلا ذلك، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أهل مكة، الذين يسألون محمداً ﷺ الآيات، ﴿أَلَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار^(٢) الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ففتحتها لمحمد أرضاً بعد أرض حواري أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قول ابن عباس وكتادة وجماعة^(٣).

(١) ورجح الطبري من هذه الأقوال قول الحسن ومجاهد، لأن الله تعالى ذكره توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وعهدهم بها، وقال لهم: «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب»، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب، هم مؤثرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك ماله، فيقضي ذلك في تخلقه، فذلك مَخُوهُ، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه. وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ. ثم ساق حديث أبي الدرداء الذي سبق تخريجه آنفاً.

انظر: تفسير الطبري: (٤٨٨/١٦-٤٨٩).

(٢) في «ب»: بلاد.

(٣) انظر: الطبري: ٤٩٣/١٦-٤٩٤.

وقال قوم: هو خراب / الأرض، معناه: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ فَنَجْرِبُهَا، وَتُهْلِكُ أَهْلَهَا، ١٩٢/أ
أَفَلَا يَخَافُونَ أَن نَفْعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ^(١)؟

قال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها^(٢).

وعن عكرمة قال: قبض الناس. وعن الشعبي مثله.

وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء^(٣).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسَاءَ جَهَالاً فَاسْتَلَوْا فَافْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(٤).

وقال الحسن: قال عبدالله بن مسعود: موث العالم ثلثة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار^(٥).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يُقبض وقبضه ذهاب أهل^(٦).

وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تُعَد.

وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم^(٧).

(١) الطبري: ٤٩٤/١٦.

(٢) انظر: الطبري ٤٩٥/١٦.

(٣) تفسير الطبري: ٤٩٧/١٦، الدر المنثور: ٦٦٥/٤-٦٦٦، وأخرج الحاكم في المستدرک: ٣٥٠/٢ عن ابن عباس في معنى الآية قال: ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها.

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم: ١٩٤/١، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه، برقم (٢٦٧٣): ٢٠٥٨/٤، والمصنف في شرح السنة: ٤/١.

(٥) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم ص (٢٤٠) عن الحسن.

(٦) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ٢٥٢/١٠، والطبراني في الكبير: ١٨٩/٩، والدارمي في مقدمة السنن: ٥٤/١، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: ٤٣/١، والبيهقي في المدخل إلى السنن ص (٢٧٢) وقال: هذا مرسل، وروي موصولاً من طريق الشاميين. وأنظر تعليق الدكتور محمد الأعظمي في الموضع نفسه.

(٧) قال الطبري في التفسير: (٤٩٧/١٦-٤٩٨): «أَوَّلُ الْأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقهرهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك، فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم إياهم؟ وذلك أن الله تَوَعَّدَ الَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَهُ الْآيَاتِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا نَرِيكَ =

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ
لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

﴿وَاللَّهُ يَخْتَكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾، لا رادُّ لقضائه، ولا ناقض لحكمه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصال المكروه إلى
الإنسان من حيث لا يشعر.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي: عند الله جزاء مكرهم. وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعاً، بيده
الخير والشر، وإليه النفع والضرر، فلا يضر مكر أحدٍ أحداً إلا بإذنه.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿الكافر﴾ على
التوحيد، وقرأ الآخرون: ﴿الكفار﴾ على الجمع. ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين
يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، إني رسوله إليكم
﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، يريد: مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضاً على ذلك.
قال قتادة: هو عبد الله بن سلام^(١).

وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة.
وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أهو عبدالله بن سلام؟ فقال:
وكيف يكون عبدالله بن سلام وهذه السورة مكية^(٢)؟
وقال الحسن ومجاهد: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الله عز وجل^(٣)، يدل عليه: قراءة
عبدالله بن عباس، ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ﴾، بكسر الميم والدال، أي: من عند الله عز وجل، وقرأ الحسن

بعض الذي يُعَدُّهم أو توفيتك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ثم وبَّههم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم بما يعانينون من
فعل الله بضربائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات فقال: «أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها» بقهر
أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك.

(١) أخرجه الطبري عن قتادة: ٥٠٣/١٦، وحكاه أيضاً عن عبدالله بن سلام نفسه، ومجاهد.

(٢) أخرجه الطبري: ٥٠٥/١٦، ٥٠٦.

(٣) انظر: الطبري: ٥٠٤/١٦، ٥٠٦.

وسعيد بن جبير **«وَمِنْ عِنْدِهِ»** بكسر الميم والذال **«عَلَّمَ الْكِتَابَ»** على الفعل المجهول^(١)، دليل هذه القراءة قوله تعالى: **«وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا»** (الكهف - ٦٥) وقوله: **«الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ»** (الرحمن - ٢، ١) ..

(١) قال الطبري: وقد روي عن رسول الله ﷺ خبر بتصحيح هذه القراءة وهذا التأويل، غير أن في إسناده نظراً. ثم ساق حديثاً منقطع الإسناد. انظر: تفسير الطبري ٥٠٦/١٦ .
وقال الهيثمي فيه: «رواه أبو يعلى، وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك» انظر: مجمع الزوائد: ١٥٥/٧ .